

الابحاث الفلسفية والبيكولوجية

الموسيقى والفلسفة

مقدمة

نشأت وشبت معي عاطفة تجذبني نحو الكمال والجمال وما فتئت هذه النفحة العلوية والجدوة الربانية تتوقد في فؤادي ويثور نائرها كلما تجلى لها الكمال والجمال بأبهى مظاهرها ومعانيهما في أي كائن كان من صنع الخالق أو من مبتدعات فنون الانسان

أثارت هذه الشعلة بصيرتي وباصرتي فأصبحت العين تنفذ في اعماق ما يفتنها فترى فيها جمالا ربما كان خفياً لا يدرك معناه كل من رآها كما انها لا تعزب عنها عيوب استترت تحت جمال كاذب يغفر كثيراً من الجهلاء السذج شغفت بالموسيقى وحلت من فؤادي المحل الارفع فأصبحت لي في الداء شفاء وفي الحزن سلوانا وفي البؤس سعادة ترتاح اليها نفسي وينعم بها روحي رويدك أيها القاريء فلا تنهني بالشطط والمغالاة فانك لا تلبث أن تسلم بما قلت حينما ارفع لك الاستار واكشف الحجب عن محاسن تفتن القلوب وجمال يسلب النهي وقدرة عظيمة واسرار مدهشة حجبتها جهل فظيع ذهبت غشاوته بالابصار وانتقلت أعراضه الى الآذان فأصمتها والى القلوب فأعمتها واصبح الفن عندنا كالحسناء فتك بها الداء الدفين والفقر المدقع فظلت هائمة على وجهها متسرولة بأطمار بالية سترت مابقي فيها من آثار الجمال فنفر منها مريدوها وهجرها محبوها اختلجت منذ سنين في صدري فكرة اظهار آيات جمال الموسيقى الخفية وأسرارها العلوية فوجدتني عيا لا أستطيع أن أجبر بوجدان أشعر به غير كاف للتعبير . فهو وان كان جله صادقا فانه يعوزه الدليل القاطع والحجج الدامغة

أردت أن أستعين بالمؤلفات الأفرنجية فنقبت طويلاً فلم أعثر على ضالتي المشودة
لأن هذا البحث لم يطرق إلا حديثاً فصبرت ردحا من الزمن إلى أن وفقني الله
للعثور على بعض المؤلفات الجليلة التي تبحث في الموسيقى والفلسفة وكلها لأفاضل
المعاصرين فعمدت إلى دراستها جميعها لأنما هذا الشعور وتهذيبه وسأوفي القراء
بصفوة ما أحرزته بعد تبويبها حسبما يلائم مشربنا متوخياً أسلوباً جليلاً واضحاً تفهمه
العامه قبل الخاصة لعلّي أكون بذلك قد أدبت بعضاً مما يفرضه علي الواجب الاجتماعي
ليس المقام مقام بحث في الفلسفة وتعريفها وتقسيمها ولا مقام يتناول الموسيقى
من الوجهة الفنية والعملية بل مداره إظهاره فضل الموسيقى وإسرارها وعلاقتها
بالفلسفة والشعر وتأثيرها في الأخلاق والعادات ونفوذها وقوتها في السحر
وتأثيرها في الحيوان

الموسيقى قوة عظيمة فتانة ساحرة بل هي فن يعبر به الإنسان عن وجدانه
وشعوره بأنغام أفصح من النطق وأبلغ من البيان وأقرب منهما تناولاً للآذان .
الفكرة الموسيقية مظهر لالهام عام عميق غامض ولكنه مفهوم لدى العالم الإنساني
الموسيقى هي لغة النفس التي تنعم بصفاتها وسعادتها ومقرها أرقى من الحياة الحقيقية
وقد قال (لوتير) : « أتى أضع بعد الالهيات مباشرة الموسيقى وأمنحها الشرف
الثاني » . وزاد عليه (بيتهوفن) نابغة الموسيقيين إذ قال : « الموسيقى وحي أعظم
وأرفع من جميع الأخلاق والفلسفة إن هي إلا رحيق نعشنا ويؤهلنا لجديد الابتداع
بل هي الحياة الخيالية منضمة إلى الحياة المادية وهي الموصل الوحيد إلى العالم الأعلى
عالم المعرفة الذي يشعر به الإنسان ولا يستطيع ولوجهوبها ننكر العلم الكامل الإلهي »
الموسيقى هي التي تترجم وتنشي الحالات النفسانية العميقة بل هي ألفت
ما أبعث من العقول . الموسيقى قوة رقيقة لطيفة للحياة الأدبية . إن هي إلا شعور
وفكر في آن واحد . الموسيقى هي لغة الحب الأفتدة بل حلية الخيال وزينة التصور
الموسيقى لغة غزيرة المعاني خفية الأسرار توظف التقوى وتخطب الشعور
مباشرة بغير واسطة . وقال (فاجنر) الموسيقى الطائر الصيت : « القلب هو الصوت
وما الموسيقى إلا لغته الفنية بل الهوى الذي يفيض ويسيل من الأفتدة

وقد اظهر الموسيقى الفرنسي الشهير (بيرايوز) قدرة الموسيقى على التعبير عن الاحوال النفسانية ومعظم الجزء الخاص بالانتقاد في كتابه يدور على صدق التعبير في الموسيقى قتره بمهارته المعروفة قد ازدري وسخر من توقيع الآلات الموسيقية في الازمان الغابرة حيث وجد جانباً منها تكلمة للعديد تسد فراغا لا معنى له أو تضاعف صوتاً تحدته آلة أخرى فقال « ان هذه الموسيقى لا تصلح الا لترقيص القردة في الاسواق واسناد الحواة والبهالين وبالعبي السيوف والثعابين في أفقر الطرق »

الموسيقى هي الفن المتداول الذي يستقي مادته من الحياة الاجتماعية كالنبات يمتص غذاءه من المكان الذي تحترقه جذوره لا التصوير ولا الحفر متداولان كما ان فن زخرفة البناء في غاية التعقيد ومفعم بالمعلومات الفنية والاثرية وخاضع للاشتغال بالزخرفة أو ضروريات أعمال خاصة ليصبح عملاً وقتياً جامعاً لعدة أشياء فهذا الامتياز اذن خاص بالموسيقى وأخيها الشعر

الموسيقى لها معنيان مختلفان متحدان في شكل واحد كالروح والجسد أحدهما في غاية من السهولة والوضوح والثاني يفر من الباحث فيه فهو في الوقت نفسه تقليد لحياة الحب أو الأشياء الظاهرة ولغة ذات فكرة خاصة بها هيمن على جميع الأشياء فهي تشمل في هذا التعبير المزدوج العبارة الشعرية التي تعززها بالحقائق الوافرة وتكمل الفكر البليغة بنقلها الى مستوى أرقى خيالاً . وهذا مما يدل على وجود التفاوت التام بين الموسيقى والشعر ... ليس الفرق بين الشاعر والموسيقار قاصراً على أنهما لا يتكلمان بلغة واحدة ولا يخضعان لقانون واحد بل لأنهما لا يفكران بمقدرة واحدة . وهذا التضاد هو الذي يدفع الواحد نحو الآخر ليتما بعضهما ببعض . وحيثما يجتمعان يعضدان اللغة الاصلية ويمنحان أصولها منتهى القدرة فيتغلبان على عواطفنا السامية ويتمكنان من أن يبثا فينا أقوى وأشرف عواطف التكافل الاجتماعي

لا توجد أمة متمدينة أو وحشية إلا والموسيقى منتشرة بينها . وإذا تصفحنا

التاريخ وجدناها في العصور الحالية . وأقدم دليل هو صورة محفورة على الاحجار تمثل شخصاً يوقع على آلة موسيقية تسمى (هارب) وجدت في بلاد السكديانيين وعثر عليها المسبو (سرزيك) في قصر (تلو) على الشاطئ الايسر من قناة تربط الدجلة بالفرات . وقد قدر تاريخها أفاضل العلماء مثل (بواتيه) بثلاثين قرناً قبل الميلاد . ولا مشاحة في أن الموسيقى أقدم من الشعر وهي التي نفتحت بقوانينه الخاضع لها

ترتبط الموسيقى بأجل العلوم وتسنى طرق أبوابها من جهات مختلفة وفضلها لا يلبث أن يظهر من جميع الوجوه اذ تتعلق بالطبيعي والفسولوجي فان كانا مزودين بطرق التحاليل والبحث العالية حددا نوايسها وكشفنا لنا فيها علما مفعما بالعجائب وترتبط بالفيلسوف الذي يستطيع أن يبين لنا انها تسعد النفوس بشريف العواطف وجليل الفكر . وتعلق بالمؤرخ الذي يظهر لنا تقدمها وما صادفها من التقلبات وعلاقتها بالتاريخ العام الاخلاق والاعادات ودورها في حركات المدنية وترتبط بعلماء الجمال فتفتحهم مقراً رفيعاً غريباً يدرسون فيه آيات جلالها وأشكالها الموسيقى الشاملة لجميع ماسر دنياه من المزايا تحدث في النفوس جرحاً من المذات وترك فيه مثل رؤوس الابرفلا تنسى هذه الآلام اللذيذة الحلوة

أجد من العبت أن أسرد عيوب الموسيقى الشرقية وما وصلت اليه من الانحطاط كما انه لفائدة من وصف العلاج الناجع اذ قد بينا ان الموسيقى فن متداول من لوازم الهيئة الاجتماعية وانها ترجمان الاخلاق والاعادات فهي مرتبطة بدرجة مدنية الامة وتسير معها خطوة بخطوة أما الى الامام واما الى الوراء . فان حاولنا أن نرقبها وحدها فثقلنا كمثل طيب جاهل يريد أن يعالج مريضاً فسد دمه وانتشرت على جسده الثآليل باقتصاره على الدهان فجعل العلة وأراد أن يداوي المرض وهيات أن يبرأ عليه وتحقق أمانيه . هذا والله أسأل ان ينهض بالشرق الى أعلى الدرجات حتى يبلغ من المجد والكمال غاية الغايات

الاصوات والكلام الالهامي الانفعال النفساني

الصوت الانساني الذي هو مصدر الكلام الشعري والموسيقى يحوز ثلاث قوى للتعبير اذ لا يتنى له ان يكون بالتتابع او في الوقت نفسه : تمثيلا للشعور او تمثيلا للاشياء المادية والخارجية أو تمثيلا للفكرة

ففي الحالة الاولى يتركب شكله من الصياح وجميع أنواعه وفي الثانية من التمثيل بالاصوات ودرجته في الاتقان وفي الثالثة من الكلام الاصلي الذي تنقله الكتابة

تتميز هذه القوى الثلاث من مصدرها ودرجتها في المفهومية والالهام هو مصدرها المشترك ولكن الاولين يمكن ان يكونا من عمل الالهام المحض وأما الاخير فيعتمد معظمه على الاتفاق والاصطلاح . وحينما يكون الصوت الانساني نتيجة وقتية للانفعال أو صدى لاصوات الاشياء الخارجية يؤثر مباشرة في الاحساس الطبيعي للسامع وتكون طرق تعبيره مفهومة لدى جميع الناس لمكانتها من الحقيقة الصريحة

ووقتما يكون الصوت الانساني علامة للفكرة فانه يخاطب العقل وله معنى عظيم كامل ولطرق تعبيره مفهومية محصورة لان صفاتها اتفافية عرفية فلتنظر الان في الحالتين الاولين أي الكلام الطبيعي الالهامي المحض وقدرته على الترجمة عن الشعور كيف تتأني هذه الترجمة اذن ؟ — ان بين الحياة الروحية والحياة الجثمانية مهوي عميق لا تدركه البراهين الفلسفية ولكن الطريق سهل ممهدين هاتين الحياتين وبين الطبيعة . والتجارب العامة هي التي تيسر لنا معاينة هذه المعجبية المدهشة والعادية في آن واحد : اذ يجعل الصوت الانفعال محسوسا وللأذان مثل ما يصيره النظر مرثيا للعيون

يهتز الفؤاد من صدمة الآلام كما ترتجف أوتار الكنتارة تحت انامل الموسيقار ويتبع تنوعات الشعور الدقيقة بسهولة لا يتأني تحديدها

يمكننا أن نميز العناصر الآتية في الاصوات التي يتركب منها الصوت الانساني قوتها وعلوها ومدتها ورنينها وحركة تنابعا . وسنين درجة تعبير هذه الصفات المختلفة للكلام الطبيعي وأما ماقتت مستعملة في الغناء وهو الحجر الاول للموسيقى الآلية

للاصوات المستعملة في الموسيقى تشابه مع الصياح وتنوعات الكلام الطبيعي وقد قال (ليسينج) الكاتب الالماني الشهير : « ليست الاصوات الموسيقية علامة لشيء ما لأنها لا تعبر مطلقاً بل تنابع الاصوات وحده هو الذي يمبر أو يوقظ الاهواء » وهذه الفكرة تبين لنا أن الصوت يشبه النقطة الهندسية التي لا تفيد شيئاً وحدها ولكنها اذا انضمت اليها نقط أخرى انشأت خطاً

وقال (داروين) : « جميع أصوات الطبيعة من طنين الحشرة الى قصف الرعد وصوت الانسان ترتبط بنصر أو هزيمة في معترك الحياة » وتنطوى خلال هذه الجملة فكرة عظيمة فحمة لا حاجة لنا الآن لحوض عبابها بل يكفي أن نقول ان الاصوات الموسيقية لها صفات تشبه مثيلاتها في الصوت الانساني فهي اذن عناصر التعبير قوة الاصوات أي درجتها في الحدة أو الضخامة تكون مناسبة لقوة الشعور المعبر عنه . فان كان الانسان لم يحدث له انفعال فانه لا يفكر تقريباً في الكلام كما ان البلادة يصحبها عادة الصمت . وعدم تأثر أصحاب الوسواس والشكوك يجعلهم يتكلمون بصوت منخفض وكذلك الذين براعون آداب المعاشرة . أما الانفعال فانه يوقظ الفؤاد والصوت . والالم يوجب الصياح

علو الاصوات محدود بأسباب قوتها اذ يرتفع الصوت بدرجة الانفعال فترى الآلام اذا تابعت مع ازدياد تنابع الصياح متنقلا في الزيادة من درجة الى أخرى أحد منها . وفي الموسيقى كلما ارتفع الصوت واشتد كان أكثر تعبيراً

للابعاد الموجودة بين الاصوات دور مهم في اللغات فانها هي التي تمنعها أشكالها وحياتها لأنها تمثل درجة الانفعال . فترى السذج ذوي التأثير البطيء

لا يستعملونها إلا قليلا وبالعكس يكثر استعمالها أصحاب الشعور الراقى
السريعو التأثير

الابعاد اما أن تكون صاعدة أو هابطة فيختلف اتجاهها حسب المقام فان كان
الشعور في غم ونحوق علا الصوت وان خمد الشعور هبط الصوت . ويلاحظ عادة
ان الجمل تنتهي بابعاد هابطة

الاصوات من وجهة طولها أو اتصالها اما أن تكون متقطعة أو متصلة وذلك
مرتبط بكيان الشعور الذي ينتجها . فالضحك يعبر عنه في الكلام الاعتيادي
بمحقات من أصوات متقطعة . وبالعكس يعبر عن الانين بأصوات متصلة . فالتعبير
بهذا الشكل موجود أيضاً في الموسيقى

ولرئين الاصوات أهمية عظمى في الكلام فيختلف بالنسبة الى المناخ والجنس
والعمر والذكورة والانوثة وصفات العواطف وطبائعها ودرجتها وحالة الانسان
النفسانية التي كان عليها وقما انبعث منه الصوت

أظهر البحث في رنين الصوت عنصرين أحدهما نتيجة للتركيب الطبيعي ثابت
لا يتغير والثاني نشأ من الظروف ويتأى تغييره لدرجة غير محدودة . فيشمل الرنين
في الوقت نفسه الجزء الدائم الثابت والجزء المتحول من حياتنا الطبيعية والادبية.
فهو للكلام بمثابة اللون للوجه

اذا سمعنا شخصاً يتكلم دون ان نراه فاننا نستطيع ان نحزر غالباً من لون
كلامه ان كان ذكراً أو أنثى ونقدر عمره بالتقريب وعواطفه الحالية وشيئاً
من أخلاقه

ان الملاحظات التي تبديها دراسة تنوع رنين الكلام وعلاقته برئين العواطف
قد أسعدت الروائيين والممثلين بنفحات عظيمة وجعلت الروايات الصغيرة التي
يمثلها شخصان أو ثلاثة سارة جذابة اذ تستطيع فيها فتاة لآتجاوب على كل ماتسأل
عنه إلا بكلمة واحدة (ياسيدي) ولكنها متنوعة الرنين حسبما توحيه العواطف
فتدل على الاحتشام والدهش والحسرة والخوف والسرور والحب وغير ذلك

والكلام حركة تنشأ درجة الانفعال أو طبيعته أو أسباب خارجية . فترى ان المحادثة مع شخص عديم المبالاة والاهتمام لا يشغل باله شيء تطول الى ان تصير غير محتملة . ومخاطبة الذين يختالون في برود شبابهم وهنأتهم تكون أكثر احتداداً ولهجة الذين تملكتمهم العواطف الهائجة تكون محتمدة سريعة نستنتج مما سبق أن جميع أشكال الكلام الالهامي توجد في الكلام الفني وهو أساس فن الموسيقى

سلمنا مبدئياً بالتعبير الموسيقى فما هو اذن مبلغه من الصحة ؟
الاصوات الموسيقية كثيلاتها في الكلام الطبيعي صحيحة التعبير . وهما في التشابه كالألوان الصناعية التي يستعملها المصور وألوان الطبيعة وهذا المثال في غاية الموافقة لسهولة وهو الوحيد المعقول الصريح
ليست الألحان والأوزان بالطرق الوحيدة للتعبير بل توجد وسائل أخرى وهي قوة الاصوات ورنينها ولها أهمية عظمى اذ بواسطتهما يحصل التنوع دون تغيير شيء في الجمل الموسيقية التي تتركب منها القطعة . فالمغني يجب عليه استعمالها كما يلزم المنتقد ان يدقق فيها النظر

نشاهد في رواية (فيديليو) من مؤلفات (بيتهوفن) في فصلها الاول ان لحناً واحداً يغنيه بالتتابع (مارسولين) و (ايونور) و (روكو) و (جاكوينو) . فهل يتصور اذن أن (بيتهوفن) يطلب من أربعة الاشخاص تعبيراً واحداً ؟
اننا نعلم ان الكلام الطبيعي الذي هو أساس الكلام الموسيقي له معنى ولكنه أقل وضوحاً من كلام الفكر (أي الكتابة)

يجوز أن يعبر الصياح نفسه عن الخوف والغضب والدهش واليأس والحقد ...
وان يعبر الانين عينه عن بائس ظفر به الألم أو شهواني منغمس في ملذاته
يصادف أحياناً هذا الغموض في التصوير والحفر . ولنضرب مثلاً المرأة التي لدغها الثعبان للمصور الفرنسي الشهير (كليرينجييه) فقد لاحظ فيها (تيوفيل

جوتيه) الشاعر الفرنسي المعروف ان تعبير الالم فيها أشبه بالملذات حينما تبلغ منتهاها من الشدة . وان شذمة الجندي تمثل العسس لنا بعة المصورين (رامبران) اختلفت فيها الآراء حتى ظننا بعضهم أنها مارة بالنهار لا بالليل . ويوجد بمتحف التماثيل والحفر بمدينة (مونينخ) تمثال عظيم كبير القامة اختلفت فيه علماء الآثار فظنه البعض رجلاً وظنه الآخرون امرأة . فهل لهذه الأسباب يستنتج ان التصوير والحفر لا يحرزان صحة التعبير ؟

ان كان نفس هذا الغموض غير محدود في بعض أقسام الحياة الادبية نفسها فكيف نتطلب من الفن ان يكون أوضح من الطبيعة وأصدق من الحقيقة ؟ هل جميع عواطفنا تتميز من بعضها البعض ؟ أليس الحب ان بلغ منتهاه من الشغف صار أشبه بالبغض ؟

وباختبارنا للاعتراضين الآتين المسيو (هزيليك) يتسنى لنا ان نبين قدرة التعبير بطريقة أدق وأوضح

١- « ليست العواطف منعزلة بل تابعة لحالات فيزيولوجية وهي والعقل شيء واحد فلا يثنى أن يعبر عنها بفن لا يستطيع فيه التمثيل ان يمثل جميع الحركات البسيكولوجية » يمكننا أن نجابه بالاستعانة بالتجارب قائلين له : « انني أشعر حق الشعور بهرحي وحزني وألمي .. دون أن يعتريني أقل شك في حالاتها الفيزيولوجية والدليل القاطع اني اذا اصغيت الى أجنبي يتحدث بلغة أجهلها فاني لا أفهم شيئاً من كلامه ولكنني أستطيع ان أعرف على الأقل ان كان المتكلم مسروراً أو غضباناً مهتداً أو حسن المقابلة جامداً أو متحمساً ... وقد تكون العواطف والفكر متضادة إذ يخالف أحياناً مدلول نعمة الكلام المعنى الحرفي للقول

٢- « حينما يتسنى للعواطف ان تبين بطريقة واضحة فذلك راجع الى الأشياء التي تنطبق عليها وتسببها . فالامل مرتبط تمام الارتباط بصورة الشيء المحبوب الذي يرجى حصوله والذي هو مخالف للحالي : فلولا (مرجريت) و (ديسديمون) ماحدث الحب . فالموسيقى اذاً لا تستطيع ان تعرفنا (ديسديمون) ولا (مرجريت) . فاذا

حذفت هذه الصورة المحسوسة التي هي سبب الحب لم تبق الا حركة غير محدودة وبالاكثر العاطفة العامة للهياة والمرض. ثم نقول ان الموسيقى تعبر عن عواطف غير محدودة فهذا لا يفيد شيئاً أذن ماهي العواطف التي لا مضمون ولا محتوى لها ؟ هذا شيء لا معنى له ولا يمكن ان يكون موضوعاً لعمل قني »

أرتنا التجارب ان معرفة الشعور لا تحتاج دائماً الى معرفة موضوعه . واذا سمعت صياحاً شديداً فلا حاجة لي بمعرفة سببه لاعلم منه تعبير الالم لكي أشعر بالعطف على الصائح ؟ اما تمتلئ قلوبنا بالرحمة والشفقة على (فيدر) وهي في المسرح قبل ان تذكر (اونون) اسم (ايبوليت) ؟ هلا نقول ان (الفريد دوسوميه) يحتاج الى سرد اسماء حبيباته ليحدث في نفوسنا تأثيره المعروف ؟ هل الحفار الذي عمل (نيويه) والمصور الذي صور (ميفيون) في حاجة لاخبارنا بحديثهما لشعر بآلام الاولى وحزن الثانية ؟

ليست جميع العواطف واضحة أو متساوية في درجة الوضوح . مثل ذلك انه توجد فوق رغبة الحصول على ثمرة رابحة بمائة الف فرنك رغبة الغنى الغير محدودة وفوق حب المال المحدود الطمع والسعي وراء العظمة بشكل ما ويوجد ميل آخر يفوق جميع هذه الرغائب بل يشملها وهو حب السعادة . يمكننا اذن أن نميز نوعين من العواطف مرتبطتين ببعض فروق خفيفة متوسطة بينها : احدهما مصحوبة بفكرة واضحة محدودة والثانية لا ترتبط بحكم ما من أحكام العقل وهي التي تمثل العواطف البحتة . فالاولى لا تستطيع الموسيقى ولا الكلام ان يعبرا عنها تعبيراً تاماً . وأما الاخرى فالموسيقى يتسنى لها ان تمثلها تمثيلاً تاماً بل تتخذ منها كالشعر موضوعاتها الشائقة المفضلة

